من ذكريات الشباب

اجترار

الأستاذ حبيب الزحلاوى

(تتمة)

— ٥ —

تلبس القصة الواقعية ، فى بعض الحين ، ثياب الأسطورة الخرافية وتبذها فى الغرابة ، وكثيراً ما يحار العقل فى تحليل وقائعها فينسبها إلى المصادفة والإتفاق ، فإذا أعيته الحيل وعجز عن بلوغ الحقيقة المادية لجأ إلى القول بالقدرية والأسرار المجهولة ، وأخيراً يعترف اعتراف المستسلم بالعناية الإلهية وهى قدرة فوق طاقة العقل الأنسانى تحده عن إدراك الغاية الإلهية من صنع العجائب والخوارق والمعجزات

وحكايتى أيها الأصدقاء فيها الأعجوبة الخارقة ، والأسطورة الخرافية الحية ، والواقعة المادية

كنا عشرين رجلا ، منا الطبيب والجراح والمساعد والصيدلى فضلا عن الأتباع ، وكان عددهم يناهز الثمانين ، وقد انتحينا ناحية من مؤخرة الجيش فى ميدان القتال اتخذناها مستشفى للاعمال الجراحية والإسعافات الطبية ، وكان كلما تقدم المحاربون من رجالنا أتينا النقالات حاملة الجرحى فنضمد البسيط منها ونقطع الرأى فى الأمور الخطيرة التى تتطلب السرعة

تقدم جنودنا تقدماً محسوساً أدركنا مداه من الدوى الذى كان يصل إلى أسماعنا مخنوقاً خافتاً حتى حسبنا أننا انقطعنا عن الجيش

لم نأبه لتقدم الجيش لأن حاملى المحفات لم يشكوا من طول المسافة الفاصلة بيننا وبينهم ، وبينما نحن فى مكاننا ذاك تستغرقنا أعمالنا إذا بالدوى قد عاد ، وإذا بصفير الرصاص وقرقعة القنابل وجلبة القتال كأنها استردت نشاطها الحى ، وأخذت المدافع تقصف وترعد وبدت كراتها تشق الفضاء وتمزقه تمزيقاً ولكنها كانت بجانب الإتجاه السوى

لفت نظر زميل طبيب الى تحول المعركة من الجبهة إلى الجناح فأجابنى إجابة تهكمية أسكتنى ، كان زميلى المتهكم ذاك ، سبط القوام ، عريض الألواح ، بديناً يحسن السخرية والتندر . لقد أحس ذلك الزميل مبلغ المى من تهكمه فتقدم منى يلاطفنى ويطيب خاطرى

فى تلك اللحظة سقطت قذيفة بالقرب منا ، أقول سقطت ، لأن العجاجة التى أثارتها ، والرجال الذين تراكموا منا فانقلبوا على الأرض ، والحصى والحجارة والأتربة وقد عقدت سحابة داكنة فوقنا ، ثم تساقطت علينا جعلتنى أرجح سقوطها بالقرب منا

ألقيت جسمى بين يدى زميلى الطبيب البدين فاحتضنى كما تحتضن الأم ولدها ، ورأيتنى أتشبث به كصبى مقرور أو مرعوب

انفجرت القذيفة بعيدة عنا ، ولم أكد أنحى وجهى عن صدر زميلى حتى رأيت محفات جرحانا تطير فى الفضاء وأحسست بجسمينا تحملهما عاصفة شيطانية كأنها خرجت علينا بغتة من أودية الجحيم ففقدت الوعى !!

لست أدرى كم كان عدد الساعات أو الدقائق التى رحت فيها فى غيبوبة أحسبها تماثل راحة الموت... ولكنى تنبهت على معالجة إخراج وجهى من حمأة كادت تكتم أنفاسى

الحمأة لزجة كريهة الرائحة ، وجفونى مقفلة بإحكام ... أجفلت من نفسى ... حاولت التخلص مما أنا فيه لأتبين حالى على حقيقته فإذا ركبتاى لا تسعفانى بالنهوض وساعداى غريقان فى بركة من دم ولحم

دم ولحم ؟!! صورة مفزعة وثبت إلى ذهنى فكدت أجن ، أخذت أنزع يدى كلتى ملسوع ، رفعت أصابعى إلى جفونى ... رفعت أصابع ملطخة تنقذ جفوناً ملطخة ؟! حاولت مجتهداً الإبتعاد عن بركة أنا الغريق فيها ، لأنى ما كدت أنقلب على ظهرى حتى أحسست أنى أتوسد أرضاً مرملة ... استعنت بالرمل على تنظيف